

بقلم: د.حسن عبدالغني أبوغدة

١ - ما رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً». قال العلماء: معنى تداعبنا: تمزح معنا.

٢ - ما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح غريب: عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «يا ذا الأذنين» يعني: مازحه، لأن كل إنسان صاحب أذنين.

٣ - ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب: عن أنس - رضي الله عنه - أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: احملني على بعير، فقال له: «إنا حاملوك على ولد الناقة» قال الرجل: وما أصنع بولد الناقة؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تلد الإبل إلا النوق»!

وبناء على هذه الأدلة وغيرها من أهل العلم: فإن أصل المزاح مباح، إذا كان بما يحسن، من غير كذب، ولا إفراط فيه. انقلاب المزاح المباح إلى مندوب أو واجب

من المسلم به في أصول الشريعة أن المباح قد ينقلب إلى مندوب «مستحب» أو واجب إذا صادف مصلحة معتبرة شرعاً. وهذا ما ينطبق أيضاً على المزاح المباح الحلال، فقد يصير مستحباً أو واجباً. أما انقلابه إلى مستحب فهو عندما يلاحظ الإنسان في نفس جلسه وخشنة أو همماً أو كآبة أو حزناً، قال ابن حجر والقسطلاني: «إن صادف المزاح مصلحة مثل تطييب نفس الخاطب وموانسته فهو مستحب». ويستدل لهذا بما رواه البيهقي وابن سعد - وأصله في الصحيحين - عن أنس - رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أبي طلحة، فرأى ابناً له يكئى أبا عمير حزناً، فقال: «مالي أرى أبا عمير حزناً» قالوا: مات عُمرُ الذي كان يلعب به، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟» والنغير: فرخ العصفور.

المزاح بين الحلال والحرام

من ذا الذي يريد أن تكون الحياة كلها عابسة مقطبّة الجبين؟ وإذا كان هناك من يريد لها كذلك، فمن الذي يطيقها ويرضاها؟

إن الحياة بغير مزاح عبء ثقيل قل من يحتمله، ومن هنا قالوا: المزاح فاكهة الجالس.

فما حقيقة المزاح؟ وما مدى حاجتنا إليه؟ وما موقف الإسلام منه؟ وهل في ذلك صور عملية من العصور الإسلامية الأولى؟ هذا ما سيتضح فيما يلي:

تعريف المزاح:

المزاح «في اللغة»: بكسر الميم وضمها، معناه: المداعبة، ومن مترادفاته: الانبساط، والإحماض، والفاكاهة، والطرفة، والنكتة، والهزل. روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول لجلسائه: أحمضوا رحمكم الله. أي خذوا من المفاكحات. وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول لأصحابه إذا ملؤ في درس: حمضونا، وميلوا إلى الفاكهة، فإن النفس تمل كما تمل الأبدان. أما المزاح «في الاصطلاح» فهو: المداعبة التي هي نقيض الجد، وفيها المرضي وفيها المؤذي.

الحاجة إلى المزاح

تؤكد الدراسات المعاصرة، أن الإنسان السوي بحاجة إلى الضحك والتبسم، وأن المزاح من أنوات ذلك ووسائله، فهو يمسح عن النفس البشرية الهموم التي تنتابها أو تحل بها، فتشعر بالسعادة والراحة، وتسترد نشاطها وتجدد

حيويتها، وتقوى على متابعة أشواط الحياة بهمة واضحة، وعزيمة أكيدة. وقد أشار إلى هذه المعاني ما رواه الديلمي وأبو نعيم القضاعي من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رَوِّحُوا القلوب، ساعة وساعة».

هذا، ومع أن الحاجة إلى المزاح ماسة، لكنها ليست مطلقة ولا عامة، حيث عمل الإسلام على تنظيم هذا السلوك، وضبط حالات المزاح فيها، وتوجيهه إلى البناء لا إلى الهدم، والسمو لا إلى الإسفاف، وبناء على هذا يمكن للمزاح - عموماً - أن تتعدد أحكامه الشرعية، حسب ما يلازمه أو يصاحبه من أحوال ومقاصد، وذلك على النحو التالي:

المزاح الحلال

يرى أكثر أهل العلم: أن المزاح مباح في الأصل، وهو لا بأس به إذا راعى المازح فيه الحق وتحزري الصدق فيما يقوله ولم يتخذ المزاح ديدناً له. ومما يدل على ذلك ما يلي:

أما انقلاب المزاح المباح إلى واجب فهو - على سبيل المثال - ما يغلب على ظن الطبيب الثقة الماهر أن هذا المريض لا يُشفى مما هو فيه من كآبة أو حال نفسية أو عصبية... إلا بالمزاح. فيتعين المزاح حينذاك، لأن من مقاصد الشريعة المقررة حفظ النفوس والعقول، ومن المعروف أن للوسائل حكم الغايات.

هذا ولا ينبغي للمزاح المباح أو المندوب أو الواجب أن يخرج على أوصافه وضوابطه وأهدافه الشرعية.

ضوابط المزاح المشروع

تشير كتابات أهل العلم إلى أن للمزاح المشروع - المباح أو المستحب أو الواجب - ضوابط لا يسع المازح تركها والتحلل منها أو التساهل فيها، ومن ذلك ما يلي:

١ - التزام الحق والصدق؛ وذلك للحديث الأثف: «إني لا أقول إلا حقاً».

٢ - البعد عن الإفراط في المزاح المباح؛ وذلك لأن الإفراط فيه يورث كثرة الضحك، وهي تميم القلب، وتوقع في الغفلة عن الله تعالى، إضافة إلى ما في ذلك من مداومة على الهزل الذي يسقط المهابة ويجزئ الناس، روى الترمذي وابن ماجه وإسناده حسن، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم وكثرة الضحك، فإنها تميم القلب».

٣ - تجنب المزاح المحرك للضعف والأحقاد؛ من المعلوم أن المزاح الحق في بعض حالاته يوصل إلى الإيذاء والمخاصمة، كأن يكون المزاح ثقيلًا، أو يثير نزاعات عرقية أو محلية أو إقليمية أو دينية... روى الترمذي وقال: حديث حسن غريب؛ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تمار أخاك ولا تمارزحه» والماراة: المجادلة التي تؤل إلى خصومة، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينها وبين المزاح في حديث واحد، لبيان خطورة المزاح الموصول إلى الأحقاد والضعفان.

٤ - ممارسة المزاح بجميع القول ومستحسن الفعل؛ وذلك باختيار الألفاظ

الحلوة الجميلة، والأسلوب اللطيف الذي تتطلع إليه النفوس وتسعد به القلوب، أخرج ابن عساکر وضعفه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً سأله: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح؟ قال: نعم، فقال: ما كان مزاحه؟ فقال ابن عباس: كسا النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ثوباً واسعاً، وقال: «أليس به وأحمدي الله، وجزئي من ذيلك هذا كذيل العروس»، ففي هذا مازحة النبي صلى الله عليه وسلم لزوجته ومداعبتها من خلال تشبيهها بالعروس وتذكيرها بأنام البهجة والفرح.

غايات المزاح المشروع وأهدافه

المزاح صورة من صور الجمالة الاجتماعية الحقة، والملاطفة المحببة، والمفاكهة المرغوبة، وقد شُرع في الإسلام لأهداف وغايات سامية منها:

١ - الإسهام في زيادة الترابط الاجتماعي؛ وذلك من خلال إشاعة جوٍّ من الأتس والمودة والالتفة، سواء بالقول الحسن أو بالفعل الجميل.

روى أحمد والبيهقي وابن حبان وسنده على شرط الشيخين أن زاهر بن حرام كان بدويًا، وكان إذا جاء إلى المدينة أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم هدية من البادية، فرأه النبي صلى الله عليه وسلم مرة في سوق المدينة، فاحتضنه من ورائه بكفيه، وقال مازحاً: «من يشتري هذا العيد؟» فعرفه زاهر فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسداً، فقال: «لكنك عند الله لست بكاسداً».

٢ - استجماع النشاط وزيادة الاقترار على متابعة مسؤوليات الحياة؛ وقد سبق أن الحياة لا تخلو من أعباء وانقباض وجفاف، وأنها تحتاج إلى وسيلة للتنفيس والتخفيف، من أجل استجماع النشاط والتقوي على متابعة الكفاح، وهذا معنى قوله «رَوَّحُوا القلوب ساعة وساعة».

٣ - تيسير الوصول إلى قلوب الآخرين لتسهيل انقيادها؛ من الملاحظ أن المازح يستطيع بدمائه خلقه دخول قلوب

الآخرين وتوجيهها إلى ما يريد بسلاسة ويسر، ورضى وطواعية.

٤ - معالجة ضعف القلوب وجبرها، ويتحقق هذا غالباً مع الصغار والعجائز والمرضى والبسطاء والمهمومين من الناس، وهذا ما عبّر عنه الإمام الغزالي بالمطايبات، وذكر أن أكثر مطايبات النبي صلى الله عليه وسلم كانت مع الصغار والعجائز والبسطاء من الناس وتقدمت صور من ذلك.

٥ - بعث التدبير الذهني وتقوية البداهة واستثارة الذكاء؛ ويلاحظ هذا إذا جاء المزاح بصيغ الكناية والتورية والألفاظ المرهمة، وعندما تظهر أهمية الفروق الذهنية الطردية، ومدى نباهة الممزوح معه وتيقظه واستقصائه على الاستدراج والوقوع في اللطخ، وسبقت هذه المعاني فيمن طلب حمله على بعير، وفي زاهر البديوي.

٦ - تهذيب الممارح وغيره وتقويم سلوكه، روى ابن السني بإسناد ضعيف عن عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - قال: بعثتني أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطف من عنب، فأكلت منه قبل أن أبلغه إياه، فلما جئت به أخذ بأذني وقال: «يا عدو»، وفي هذه المازحة اللطيفة تنبيه للطفل على خطورة الإخلال بالأمانة، وحفز له على تقويم سلوكه وعدم العودة إلى مثل ذلك.

المزاح الحرام

المزاح الحرام: هو الداعية التي تستحل على قول أو فعل نهى عنه الشرع وترتب عليه العقاب. وفي ضوء هذا التعريف، فإن من المزاح الحرام ما يلي:

١ - ما جانب الحق والصدق، وكان فيه كذب وافتراء، وحكاية لأمر خيالية غير واقعية بقصد إضحاك الناس.

٢ - ما كان فيه تخويف الناس وإيذاءهم، قولاً أو فعلاً أو إشارة، وإن كان بقصد الضحك والمزاح والمداعبة.

٣ - ما ترتب عليه إضاعة حقوق لله تعالى؛ كالإخلال بالفرائض والانشغال عن ذكر الله وطاعته بسبب حيلة ضاحكة

ونحوها.

٤ - ما ترتب عليه أذى في المازح والممازح، سواء كان الأذى نفسياً أو بدنياً أو اجتماعياً، كأن يتضارب المتمازحان أو غير ذلك أو يسخر الناس من المزوح معه.

٥ - المزاح الذي يمسُّ العورات ويتحدث عن الحرمات والأعراض والأدلة على تحريم هذا النوع من المزاح: وردت مجموعة من الآيات والأحاديث التي تفيد تحريم هذا النوع من المزاح ومن ذلك ما يلي:

١ - قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب... الحجرات: ١١، وهذه الحرمات المذكورة «السخرية - واللمزم - والتنازح» إذا صاحبت المزاح صار المزاح حراماً.

٢ - روى أحمد وأبو داود والبيهقي: أن الصحابة كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى سهم معه فأخذته، ففزع الرجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يفزع مسلماً ولو هازلاً».

٣ - روى أبو الشيخ بإسناد حسن: عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم، فيسقط بها أبعاد من السماء؟ ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه، فيسخط الله بها عليه، لا يرضى عنه حتى يدخله النار؟»

صور أخرى من المزاح الحرام من هذا النوع: ما يعرف بكذبة «أبريل»، وهي من عادات غير المسلمين وتقليدهم فيها حرام، فضلاً عما تسببه من أضرار وأمراض ومفاسد.

ومن المزاح الحرام الأعمال الكوميديّة المشتملة على الاستهزاء بعقيدة المسلمين وشعائريهم، قال الله تعالى: (قال أباالله

وأياته ورسوله كنتم تستهزئون)؟ التوبة: ٦٥. ومثلها أيضاً: الرسوم الكاريكاتيرية الفاسدة.

ومن المزاح الحرام: التحدث فيما يمسُّ الحرم والأعراض وحالات الإنسان الخاصة مع أهله والمفاخرة بذلك - وإن كان ذلك حقاً وأقرباً - إذا كان يذكر للمزاح وإضحاك الناس، ويحل على هذا المنع عموم ما رواه مسلم من حديث: «إن من أشرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه».

وفي رواية الأحمري: «... فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون».

وفي مسند أحمد أيضاً وفي سنن البيهقي حديث: «الشَّيْأُ حرام»، قال أحد الرواة: هو الذي يفتخر بالجماع ويُشيع خبره بين الناس...

ومن المزاح الحرام: المزاح الساخر من أهل بلد أو محلة أو صنعة أو الذي يؤجج عصبية عنصرية أو جاهلية.

ومن المزاح الحرام: مزاح الرجل مع المرأة الأجنبية، ومزاحها مع رجل من غير محارمها، لما يؤول إليه غالباً من معصية. المزاح المكروه، هو المداعبة المشتملة على قول نميم أو فعل مستكره لا يترتب عليه عقاب شرعي.

وفي ضوء هذا التعريف يمكن عرض بعض صورته ومن ذلك ما يلي:

١ - الإسراف في المزاح الحق والاسترسال فيه، فهو يخدش مكانة الفرد ويسقط وقاره ويشعر بسخف عقله ويطر معيشته، وربما جرَّ إلى الكذب وآل إلى المخاصمة والوقوع في الحرام.

٢ - المزاح مع من لا يتقبله: وذلك لما يترتب عليه من ضيم وإحراج، وربما أحرز القلب وأخرج عن الحشمة والآداب الاجتماعية.

٣ - بكلام مستكره الفحوى والمضمون: كالتعريض بالعورات والأشخاص ولو كان موضوع المزح حقاً وأقرباً.

٤ - اتخاذ المزاح الحق مهنة، وسبق بيان أن المزاح الكاذب حرام قطعاً، أما المزاح الحق فهو مكروه إذا اتخذته الإنسان ديناً له وأسرف فيه، ولو على سبيل المهنة، فضلاً عن أن هذا العمل غير منتج اقتصادياً، بل هو بطالة مقنعة وأرى أن هذا يشمل ما يسمَّى بالرسوم الكاريكاتيرية والأعمال الكوميديّة التي ليس فيها افتراء وبهتان وكذب.

أدلة ذم المزاح المكروه: من أدلة ذم المزاح المكروه ما يلي:

١ - الآية: (والذين هم عن اللغو معرضون) المؤمنون: ٥، ومن الواضح أن الاسترسال في المزاح الحق والإسراف فيه وبه من وجوه اللغو، لضياح الوقت بغير فائدة ونفع.

٢ - حديث الشيخين: «... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

٣ - حديث الترمذي وهو حسن غريب: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي» وهو ينطبق على كثير من حالات المزاح المكروه.

٤ - قول الصحابي سعيد بن العاص - رضي الله عنه: «اقتصد في مزحك، فالإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرئ عليك السفها».

وهكذا يتضح مدى اعتدال وواقعية أحكام الإسلام وشرائعه، حيث أباح للنفس البشرية صور المزاح التي تخفف عنها أعباء الحياة، وتمسح عنها الهموم، وتجدد لها النشاط والحيوية وتوثق عرى الصلوات الإنسانية، وتزدي أهدافها التربوية والاجتماعية، بعيداً عن الإساءة والظلم والافتراء، وإضاعة الحقوق والفظاظة مع الناس، أو إهدار الوقت في نشاط هدام غير منتج. وصدق الله العظيم: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) الإسراء: ٩. ❁